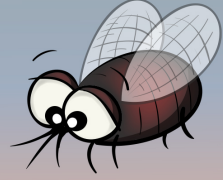


العنكب الحزين

كامل كيلاني





Группа Арабского Языка vk.com/arabictutor

العَنْكَبُ الحَزِين



Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

Группа Арабского Языка vk.com/arabictutor



Группа Арабского Языка vk.com/arabictutor

العَنْكَبُ الحَزِين

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٦٥٣٥

تدمك: ٠٢٢٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ + ٢٠٢ فاكس: ٣٥٣٦٥٨٥٣ + ٢٠٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

Группа Арабского Языка vk.com/arabictutor

العنكبُ الحزين

(١) جوار الأَحْوَيْنِ



خَرَجَ «صَفَاءً» و«سُعَادًا» يَتَنَزَّهَانِ — عَلَى عَادَتِهِمَا — فِي الدَّسْكَرَةِ. وَمَا زَالَا فِي تَجْوَالِهِمَا
حَتَّى تَعَبَا مِنَ الْمَشْيِ، فَجَلَسَا فِي الْحَدِيقَةِ، وَاسْتَلْقَيَا عَلَى أَرْضِهَا السُّنْدُسِيَّةِ الْبَهِيجَةِ.

فاسترعت بصرهما عنكبُ جميلة الشكل، وأدهشهما ما رآياه من هندسة بيتها، وديقة خيوطه، وبراعة نسجه. وظلا يتأملان بيت العنكبوت الحاذقة ساعة، ويُعلمان النظر والفكر في دقائق هذه النساجة الذكية، الصانع اليد، ويطلقان التأمل في بدائع الهندسة البارعة المتفننة. وقد امتلأت نفساهما دهشًا وإعجابًا بصبر هذه الحشرة الضئيلة ومثابرتها.

وصاحت «سعاد»: «تبارك الخلاق العظيم! أليس من العجب العاجب أن تهدي هذه الحشرة الضئيلة إلى دقائق من أسرار الهندسة، يحار فيها المتأمل وينبهر منها المفكر، ويقف أمامها العقل مدهوشًا؟»

فقال «صفاء»: «لقد تعلم الأقدمون من هذه المخلوقة الصغيرة، كيف يصنعون شباكهم وحبائلهم، ليصطادوا بها أسراب الطير والحيوان البري والبحري على السواء. ولعلك تذكرين قصة «الصياد الأفريقي» الذي كان يصطاد الوحوش برمحه، وكيف جرحه أحدها، وألقاه على الأرض.

وكيف استرعى بصر الصياد ما رآه من براعة أحد العناكب في اصطيد الذباب، ودهش لقدرة العجيب على نسج الشباك، والحبائل المحكمة».

فصاحت «سعاد»: «صدقت - يا أخي - لقد ذكرت تلك الأسطورة الجميلة الآن، وذكرت أن ذلك الصياد نسج شباكه على منوال العنكب الذكي، فاصطاد كثيرًا من أسراب الوحش.

ثم ارتقى في تقليد العنكب، فنسج ثيابًا له ولزوجته ولجيرانه، فأعجبت بالصياد عشيرته، واتخذته قومه زعيمًا لهم وأستاذًا».

فقال «صفاء»: «لا تنسي أنه قال للمعجبين به: «إن أستاذي ومُرشدي إلى هذا الاختراع الجليل هو: العنكب الذكي الصانع».

ف قالت «سعاد»: «صدقت - يا أخي - وسأرجع إلى الجزء الأول من كتاب القصاص الجغرافية، الذي سجل فيه أبي تلك الأسطورة العجيبة، لأقرأها مرة أخرى».

فقال «صفاء»: «ولقد قص علينا أستاذ الإنشاء - في هذا العام - أن ملكًا من الأقدمين دب إلي قلبه دبيب اليأس، بعد أن هزمه العدو؛ فجلس مُطرقًا، حزين القلب، مُشرد الفكر. وإنه لغارق في همومه، إذ حانت منه التفاتة؛ فرأى عنكب تنسج خيوطها،

العنكبُ الحزين

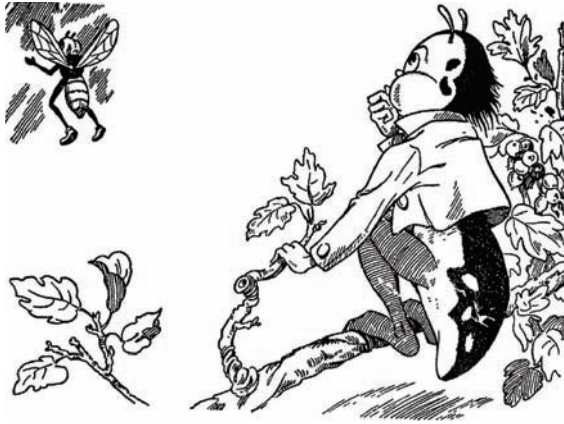
وأبصرها تقذف بأحد الخيوط إلى ركن العُرْفَة فلا يقرُّ فيه، فتعيد الكرة ثانية وثالثة ورابعة بلا جدوى. وما زالت العنكبُ جادة في تحقيق غايتها، دون أن يجد اليأس إلى قلبها سبيلاً، حتى ثبتت الخيط في المرة الثالثة عشرة؛ فكان ذلك النجاح — بعد المثابرة — أبلغ درس يُعلم الملك المهزوم فضل الأناة والصبر، ويُنسيه مرارة الهزيمة وألم اليأس. فضاغف من همته، وقوى من عزمته، وما زال بأعدائه حتى كتب له النصر في الموقعة الأخيرة. وكان الفضل — في ذلك النصر — عائداً إلى اقتدائه بالعنكبُ الجادة المُجدَّة المثابرة!»



(٢) جِوَارُ أُمِّ «قَسْعَمٍ»

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «مَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَةِ الضَّئِيلَةِ، الَّتِي أَحْرَزَتْ — عَلَى حَقَارَةِ بِنْيَتِهَا — عَقْلًا كَبِيرًا، وَجَمَعَتْ حِدْقًا وَمَهَارَةً يُحِيرَانِ الْأَبَابَ!»
 وَمَا أَتَمَّتْ «سُعَادُ» جُمْلَتَهَا، حَتَّى أَقْبَلَ أَخُوهَا «رَشَادُ» الصَّغِيرُ، وَفِي يَدِهِ عَصَا طَوِيلَةً يَعْبَثُ بِهَا فِي أَتْنَاءِ سَيْرِهِ، حَتَّى إِذَا اقْتَرَبَ مِنْ «سُعَادَ» حَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ، فَرَأَى الْعَنْكَبَةَ قَرِيبَةً مِنْهُ؛ فَهَمَّ بِتَحْطِيمِ بَيْتِهَا بِعِصَاهُ.
 وَأَدْرَكَ «صَفَاءُ» مَا يَجُولُ بِخَاطِرِ أَخِيهِ، فَأَمْسَكَ بِيَدِهِ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُ.
 فَغَضِبَ «رَشَادُ» الصَّغِيرُ، وَقَالَ لِأَخِيهِ «صَفَاءُ» وَقَدْ سِيءَ وَجْهُهُ: «لَقَدْ حَرَمْتَنِي يَا «صَفَاءُ»، مُتَعَةً كَانَتْ تَصُبُّو إِلَيْهَا نَفْسِي. مَا كَانَ ضَرْكَ — يَا أَخِي — لَوْ أَطْلَقْتَ لِي حُرِّيَّتِي، لِأَلْهُوَ بِهِذِهِ الْحَشْرَةَ الضَّئِيلَةَ، الَّتِي لَا شَأْنَ لَهَا وَلَا خَطَرَ؟»

(٣) نَشِيدُ الْعَنْكَبَةِ



وَهُنَا انْتَبَعَتْ مِنْ بَيْنِ الْخُيُوطِ الْعَنْكَبِيَّةِ الدَّقِيقَةِ صَوْتُ خَافِتٍ، يَقُولُ: «هُوْنَ عَلَيْكَ يَا «رَشَادُ»، أَنَا لَسْتُ — كَمَا حَسِبْتَنِي — حَشْرَةً ضَّئِيلَةً، لَا شَأْنَ لِي وَلَا خَطَرَ. إِنَّ فَضْلَ الْعَنَاكِبِ عَلَى

بني الإنسانِ لَجْدِيرٌ بِالثَّنَاءِ. وَإِنَّ مَهَارَتَنَا فِي النَّسْجِ، وَمُثَابَرَتَنَا عَلَى الْعَمَلِ — بِلَا مَلَالٍ وَلَا كِلَالٍ — قَدْ أَصْبَحَتْ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ.»

فَعَجِبَ «رِشَادُ» وَأَخَوَاهُ مِمَّا سَمِعُوهُ مِنْ تِلْكَ الْعَنْكَبَةِ الذِّكِّيَّةِ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَيْرَةُ، وَتَمَلَّكَهُمُ الدَّهْشُ.

وَإِنَّهُمْ لَغَارِقُونَ فِي ذُهُولِهِمْ مِمَّا سَمِعُوهُ، إِذَا بِالْعَنْكَبَةِ فِي الشَّعِّ (وَهُوَ بَيْتُ الْعَنَاكِبِ) تَغْنِي بِصَوْتِ وَاضِحِ الذَّبْرَاتِ:

مَهَارَةُ الْعَنَاكِبِ	أَعْجَبُ شَيْءٍ عَاجِبٍ
هَنْدَسَةٌ دَقِيقَةٌ	تُبْهَرُ عَقْلَ الْحَاسِبِ
دَائِبَةُ السَّعْيِ، وَمَا	يَفُوزُ غَيْرُ الدَّائِبِ
جَائِمَةٌ — فِي بَيْتِهَا —	لِحَاضِرٍ، وَغَائِبِ
تَرْقُبُ كُلَّ زَائِرٍ،	مِنْ قَائِمٍ، وَذَاهِبِ
تُوقِعُ — فِي شِبَاكِهَا —	كُلَّ غَيْبِيٍّ خَائِبِ
تَرَى بَعِينَ لَا تَنِي	تَرَى بِفِكْرٍ ثَاقِبِ
بَارِعَةً — فِي كَيْدِهَا —	سَدِيدَةَ الْمَذَاهِبِ
نَاسِجَةٌ خُيُوطِهَا	عَلَى مِثَالِ صَائِبِ
كَثِيرَةٌ أَرْجُلُهَا،	طَوِيلَةُ الْمَخَالِبِ
لَهَا عُيُونٌ جَمَّةٌ،	تَرْنُو بِلَا حَوَاجِبِ
وَهِيَ — إِذَا دَرَسَتْهَا —	عَجِيبَةُ الْعَجَائِبِ!

(٤) قَاتِلَةُ الزُّبَارِ

اشْتَدَّ عَجَبُ الْإِخْوَةِ الثَّلَاثَةِ مِمَّا سَمِعُوا، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْعَنْكَبَةِ الذِّكِّيَّةِ مُنْصِتِينَ إِلَى حَدِيثِهَا الْمُعْجِبِ، فَاسْتَأْنَفَتْ قَائِلَةً: «أَصْغِ إِلَيَّ يَا «رِشَادُ»: أَلَا تَعْرِفُ أَنَّي قَدْ أَسَدَيْتُ إِلَيْكَ صَنِيعًا لَا يُنْسَى؟ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّي أَنْقَذْتُكَ مِنْ لَسَعَةِ زُنْبَارٍ شَرِسٍ، كَانَ يَهْمُ بِإِيذَانِكَ فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي؟»

فَقَالَ لَهَا «رِشَادُ» وَأَخَوَاهُ مُتَعَجِّبِينَ: «أَيُّ زُنْبَارٍ تَعْنِينَ أَيُّهَا الْعَنْكَبَةُ الْكَرِيمَةُ؟»

فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ مَرْهُوَّةً نَيَّاهَةً: «لَحْتُ — مِنْذُ أَيَّامٍ — زِنْبَارًا حَبِيئًا، يَطْنُ طَنِينًا مُزْعَجًا. رَأَيْتُهُ يَقْتَرِبُ مِنْ «رَشَادٍ» وَيَهْمُ بِلَسْعِهِ، فَتَرَبَّصْتُ بِهِ الدَّوَائِرَ، وَصَبَرْتُ عَلَيْهِ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْ شِبَاكِي. وَمَا زِلْتُ بِهِ أُخَادِعُهُ وَأُغْرِيهِ، حَتَّى وَقَعَ فِي حَبَائِلِي أَسِيرًا، وَظَفَرْتُ بِهِ بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ. ثُمَّ أَنْشَبْتُ فِيهِ مَخَالِييَ، وَنَفَقْتُ فِي جِسْمِهِ مِنْ سَمِّي، حَتَّى خَدِرَتْ أَعْصَابُهُ، وَتَمَّ لِي افْتِرَاسُهُ، وَكَانَ لِي أَشْهَى طَعَامٍ أَكَلْتُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ».

فَصَفَّقَ الْإِخْوَةُ الثَّلَاثَةُ لِمَا سَمِعُوا مِنْ حَدِيثِ الْعَنْكَبَةِ، وَأَعْجَبُوا بِبِرَاعَتِهَا وَحَذِقِهَا. ثُمَّ قَالَ لَهَا «صَفَاءُ»: «أَنْتِ أَسَدِيَّةٌ إِيْنَا صَنِيعًا نَذَكُرُهُ لِكَ أَبَدِ الدَّهْرِ، وَسَنْتَخَذُكَ لَنَا صَدِيقَةً، مِنْذُ الْيَوْمِ، فَمَاذَا أَنْتِ قَائِلَةٌ؟»

فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «مَا أَسْعَدَنِي بِصَدَاقَتِكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُتَحَابُّونَ. سَأَكُونُ لَكُمْ خَيْرَ صَدِيقٍ تَأْنَسُونَ بِهِ، وَنُحْلِدُونَ إِلَيْهِ».

فَقَالَ لَهَا «صَفَاءُ»: «شُكْرًا لِكَ — أَيَّتُهَا الْعَنْكَبَةُ الظَّرِيفَةُ — عَلَى كَرِيمِ تَلَطُّفِكَ، وَمَوْفُورِ أَدَبِكَ. فَهَلْ أَنْتِ مُتَفَضِّلَةٌ عَلَيْنَا، فَذَاكِرَةٌ لَنَا كُنَيْتِكَ، لِنُكْرِمَكَ بِهَا كُلَّمَا نَادَيْنَاكَ؟»
فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «كَانَتْ أُمِّي «الرُّتَيْلَاءُ» تُنَادِينِي — مِنْذُ وَلَدْتَنِي — بِأُمَّ قَشْعَمٍ».

(٥) مَوْلِدُ الْعَنْكَبَةِ

فَقَالَ «صَفَاءُ»: «وَأَيْنَ أُمُّكَ الرُّتَيْلَاءُ الْعَزِيزَةُ أَيَّتُهَا الصَّدِيقَةُ الْمُؤْنِسَةُ؟»

فَقَالَتْ «أُمَّ قَشْعَمٍ»: «مَاتَتْ أُمِّي «الرُّتَيْلَاءُ»، بَعْدَ أَنْ خَرَجْتُ مِنْ بَيْصَتِي. لَمْ أَنْعَمْ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ».

فَصَاحَتْ «سُعَادُ»: «كَيْفَ تَذَكِّرِينَهَا — يَا «أُمَّ قَشْعَمٍ» — وَأَنْتِ لَمْ تَرَيْهَا فِي حَيَاتِكَ قَطُّ؟»

فَقَالَتْ «أُمَّ قَشْعَمٍ»: «أَنَا رَأَيْتُهَا حِينَ خَرَجْتُ مِنَ الْبَيْضَةِ. إِنَّنَا — مَعَشَرَ الْعَنَاكِبِ — نَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ رَاشِدِينَ، مُكْتَمِلِي الْخَلْقَةَ، هَذَا هُوَ شَأْنِي وَشَأْنُ بَنَاتِ جِنْسِي جَمِيعًا».
فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «هَلْ وَضَعْتَ أُمَّكَ «الرُّتَيْلَاءُ» بَيْضَةً وَاحِدَةً، هِيَ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا، يَا أُمَّ قَشْعَمٍ؟»

أَجَابَتْ «أُمُّ قَشْعَمٍ» ضاحِكَةً: «كَلَّا يَا «سُعَادُ»، أُمِّي وَضَعْتُ أَرْبَعِينَ بَيْضَةً. أَنَا كُنْتُ إِحْدَى مَوْلُودِيهَا الْكَثِيرِينَ!»

فَصَاحَ «رَشَادُ»: «كَيْفَ تَبْيِضُ أُمُّكَ مِثْلَ هَذَا الْقَدْرِ الْعَظِيمِ؟»

قَالَتْ «أُمُّ قَشْعَمٍ»: «إِنَّا — مَعَشَرَ الْعَنْكَبَاتِ — نَبِيضُ مِنْ عَشْرِ بَيْضَاتٍ إِلَى مِائَةِ بَيْضَةٍ. وَقَدْ يَبْلُغُ مَا يَبْيِضُهُ بَعْضُ بَنَاتِ جِنْسِنَا ثَمَانِمِائَةَ بَيْضَةٍ، فَإِذَا أَفْرَخَ الْبَيْضُ خَرَجَتْ الْعِنَاكِبُ إِلَى الْجُعْدَبَةِ (بَيْتِ الْعِنَاكِبِ) نَامِيَةَ الْحِلْقَةِ. وَلَا تَزَالُ تَنْمُو، مُنْدَرِّجَةً فِي نَمَائِهَا، حَتَّى تُصْبِحَ مِثْلَ أُمَّاتِهَا.»

فَقَالَ «صَفَاءُ»: «أَنْتِ أَخْبَرْتِنَا أَنَّ أُمَّكَ «الرُّتَيْلَاءُ» مَاتَتْ بَعْدَ أَنْ خَرَجَتْ أَنْتِ مِنَ الْبَيْضَةِ، فَخَبِّرِينِي: أَدْلِكَ شَأْنَ أُمَّاتِ الْعِنَاكِبِ دَائِمًا؟ هَلْ تَمُوتُ الْأُمَّاتُ بَعْدَ فَقْسِ الْبَيْضِ كَمَا مَاتَتْ أُمُّكَ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ قَشْعَمٍ»: «إِنَّ أَكْثَرَ الْعَنْكَبَاتِ يَهْلِكْنَ بَعْدَ أَنْ يَصْعَنَ الْبَيْضُ، أَوْ عَقِبَ تَرْبِيَةِ أَطْفَالِهِنَّ النَّاشِئِينَ. عَلَى أَنْ بَعْضُنَا قَدْ يُعَمَّرُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ كَامِلَةً.»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتِ الْعَنْكَبَةُ قَائِلَةً: «مَتَى وَضَعْتَ الْعَنْكَبَةَ الْبَيْضُ، نَسَجْتَ حَوْلَهُ غِلَافًا لَوْقَاتِيهِ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْحُطُوبِ. فَإِذَا تَمَّ فَقَسَ الْبَيْضُ خَرَجَتْ مِنْهُ الْعِنَاكِبُ وَالْعِنَاكِبُ مُسْتَقْبِلَةَ الْحَيَاةِ، وَقُلُوبُهُنَّ مَمْلُوءَاتٌ أَمَلًا وَرَجَاءً، وَنَفُوسُهُنَّ مُفْعَمَاتٌ بِحُبِّ الْعَمَلِ وَالْمُتَابَرَةِ.»

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «أَرَاكَ تُقَسِّمِينَ أَبْنَاءَ «الرُّتَيْلَاءِ» إِلَى: عَنكَبَاتٍ وَعِنَاكِبٍ، فَخَبِّرِينَا، يَا «أُمُّ قَشْعَمٍ»: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ قَشْعَمٍ»: «إِنَّ الْعَنْكَبَةَ أَكْثَرُ نَفْعًا، وَأَعْمُ فَائِدَةً، وَأَوْفَرُ عَمَلًا، مِنْ أُخِيهَا الْعَنْكَبِ، لِأَنَّهَا تُؤَدِّي مِنْ جَلَائِلِ الْأَعْمَالِ مَا لَا يُؤَدِّيهِ. فَهِيَ تَغْزُلُ، وَتَنْسُجُ بَيْنَهَا، وَتَقُومُ بِكُلِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُسْرَةُ. أَمَّا الْعَنْكَبُ فَهُوَ لَا يَنْشِطُ إِلَى النَّسْجِ إِلَّا مُضْطَرًّا، وَهُوَ أَقْلُ صَبْرًا عَلَى الْعَمَلِ، وَاحْتِمَالًا لِلْمُتَابَرَةِ، كَمَا أَنَّهُ أَصْغَرُ جِسْمًا، وَأَقْلُ قُوَّةً.»

(٦) نَشَأَةُ «أُمِّ قَشْعَمٍ»

فَقَالَ «صَفَاءُ»: «أَيْنَ وُلِدَتْ يَا أُمَّ قَشْعَمٍ؟»
 قَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «أَنَا وُلِدْتُ فِي بَيْتِ عَمِيدِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، حَيْثُ نَسَجَتْ أُمِّي «الرُّتَيْلَاءُ»
 بَيْتَهَا الْجَمِيلَ، فِي إِحْدَى الْغُرَفِ الْمَهْجُورَةِ. وَظَلَلْتُ وَإِخْوَتِي نَسْكُنُ هَذَا الْبَيْتَ بَعْدَ مَوْتِ
 أُمِّنَا، حَتَّى جَاءَ خَادِمٌ خَبِيثٌ زَلْزَلَ بَيْنَنَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَأَعَدْتُ نَسَجَ الْبَيْتِ — مِنْ
 جَدِيدٍ — بَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ. فَلَمَّا جَاءَ الْعُدُ عَادَ إِلَيْنَا الْخَادِمُ الشَّرِيرُ، فَنَقَضَ بَيْنَنَا
 مَرَّةً أُخْرَى؛ فَهَجَرْتُ ذَلِكَ الْمَكَانَ إِلَى حَافَةِ النَّهْرِ. وَنَسَجْتُ لِي بَيْتًا جَمِيلًا فِي تَنَائِي إِحْدَى
 الْأَشْجَارِ. وَمَا لَبِثْتُ فِيهِ أَسْبُوعَيْنِ حَتَّى رَأَيْتُ بَعْضَ الضَّفَادِعِ يَأْتِمُرُ بِي لِيقْتُلْنِي. فَهَجَرْتُ
 بَيْتِي إِلَى جِدَارٍ قَدِيمٍ مَهْجُورٍ، حَيْثُ بَنَيْتُ لِي دَارًا أُنِيقَةً. وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَقِرَّ فِيهَا حَتَّى
 رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ كِبَارِ الْبَرَصَةِ تَأْتِمُرُ بِي لِيقْتُلْنِي، فَهَرَبْتُ مِنْهَا، وَأَثَرْتُ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.
 وَمَا زِلْتُ أَمْشِي حَتَّى سَاقَتْنِي الْمَقَادِيرُ إِلَى هَذِهِ الْحَدِيقَةِ الْجَمِيلَةِ، حَيْثُ بَنَيْتُ هَذَا الْبَيْتَ
 الْفَاحِخَ، الَّذِي تَرَوْنَهُ أَمَامَكُمْ!»

(٧) سِبَاعُ الْعَنَاكِبِ

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «أَتَمَنَّى لَكَ عَيْشَةً رَاضِيَةً، يَا «أُمَّ قَشْعَمٍ». وَأَجِبْ أَنْ تُخْبِرَنِي — أَيَّتُهَا
 الْعَزِيزَةُ — كَيْفَ تَخْشَيْنَ الْبَرَصَةَ؟ إِنَّ أَحَدَ الْمُدْرِسِينَ أَخْبَرَنَا فِي بَعْضِ دُرُوسِهِ أَنَّكُمْ —
 مَعْشَرَ الْعَنَاكِبِ — تَأْكُلُونَهَا؟»
 فَقَالَتْ «أُمَّ قَشْعَمٍ»: «صَدَقَ الْمُدْرِسُ. إِنَّ بَعْضَ بَنَاتِ جِنْسِنَا — مِنْ كِبَارِ الْعَنَاكِبِ —
 يَفْتَكِنُ بِالْبَرَصَةِ، كَمَا يَفْتَكِنُ بِكِبَارِ الْحَشْرَاتِ، وَصِغَارِ الْعَصَافِيرِ.»
 فَقَالَ «صَفَاءُ»: «صَدَقْتِ يَا «أُمَّ قَشْعَمٍ». إِنَّ الْأُسْتَاذَ حَدَّثَنِي أَنَّ نَوْعًا مِنْ سِبَاعِ
 الْعَنَاكِبِ النَّاشِئَةِ فِي بِلَادِ «الْبِرَازِيلِ»، تَصُدُقُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَوْصَافُ الَّتِي تَدْكُرِينَهَا.»
 فَقَالَتْ «أُمَّ قَشْعَمٍ»: «حَدَّثْتَنَا بَنَاتُ «الرُّتَيْلَاءِ» عَنْ هَذِهِ الْعَنْكَبَاتِ الَّتِي وَصَفْتَهَا لَكَ
 يَا «صَفَاءُ». وَهِيَ — كَمَا قُلْتِ — مِنْ سِبَاعِ الْحَشْرَاتِ.»

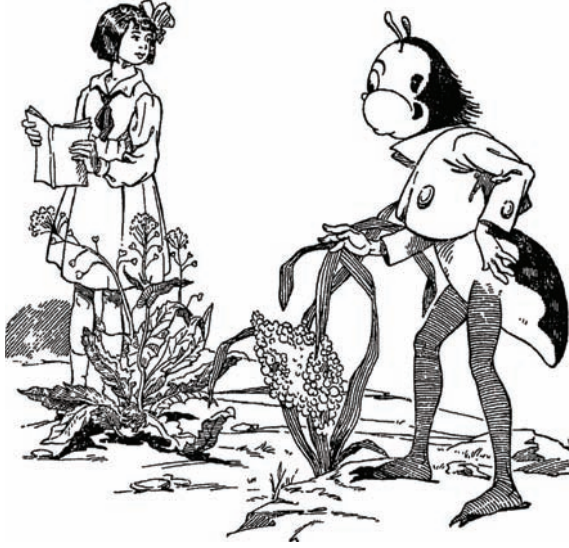
(٨) مزايا العنكب

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «إِنَّ جِسْمِكَ — فِيمَا أَرَى — نَاعِمٌ الْمُلْمَسِ، لَسْتُ أذْكَرُ أَنَّي رَأَيْتُ حَشْرَةً تُشْبِهُكَ فِي هَذِهِ الْمِيْرَةِ.»

فَقَالَتْ «أُمَّ قَشْعَمٍ»: «إِنَّ اللَّهَ مَيَّرَنَا — مِنْ بَيْنِ الْحَشْرَاتِ كُلِّهَا — بِنُوعِمَةِ الْجِسْمِ، وَخَصَّنَا بِهِذِهِ الْمِيْرَةِ، عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِنَا، وَتَبَايُنِ أَجْنَاسِنَا، وَتَفَرُّقِ أَوْطَانِنَا. وَجَعَلَ أَجْسَامَنَا مُؤَلَّفَةً مِنْ حَلَقَاتٍ لَا تَكَادُ تَرَاهَا الْعَيْنُ، لِتَقَارِبِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ!»

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «أَسْمَعُكَ تَقُولِينَ: إِنَّكُمْ مُخْتَلِفُو الْأَجْنَاسِ. فَهَلْ تَعْنِينَ أَنَّ بَعْضَ الْعَنَّاكِبِ يَخْتَلِفُ عَن بَعْضٍ؟»

فَقَالَتْ «أُمَّ قَشْعَمٍ»: «مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ يَا «سُعَادُ»، إِنَّنَا — مَعَشَرَ الْعَنَّاكِبِ — أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى؛ فَمِمَّا مَن يَتَّخِذُ لَهُ جُحْرًا يَحْفَرُهُ فِي الْأَرْضِ، وَيُخْفِيهِ عَنِ الْعِيُونِ، وَيُقِيمُ فِيهِ طُولَ يَوْمِهِ. فَإِذَا أَمْسَى، فَتَحَّ بَابَ الْجُحْرِ، وَخَرَجَ مُلْتَمِسًا رِزْقَهُ؛ حَتَّى إِذَا شَبِعَ، عَادَ إِلَى جُحْرِهِ، وَأَقَامَ فِيهِ بَعِيدًا عَن عِيُونِ الرُّقَبَاءِ. وَمِمَّا مَن يَبْنِي بُيُوتَهُ فِي الْبَسَاتِينِ، أَوْ فِي بُيُوتِ النَّاسِ. وَمِمَّا مَن يَبْنِيهَا فَوْقَ مَسَارِبِ الْمِيَاهِ، وَيُنْسُجُ خُيُوطَهُ الطَّوِيلَةَ عَلَى شَجَرَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الشَّاطِئَيْنِ. أَمَّا عِيُونُنَا فَهِيَ لَا تَتَحَرَّكُ كَمَا تَتَحَرَّكُ عَيْنَا الْإِنْسَانِ، وَلِهَذَا جَعَلَ لَنَا اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — كَثِيرًا مِنَ الْعِيُونِ، لِنَرَى بِهَا كُلَّ مَا يَكْتَنِفُنَا مِنَ الْأَشْيَاءِ. وَقَدْ وَهَبَ اللَّهُ لِبَعْضِنَا عَيْنَيْنِ — كَمَا وَهَبَ لَكُمْ مَعَشَرَ النَّاسِ — وَوَهَبَ لِبَعْضِ الْآخَرِ عِيُونًا أَرْبَعًا، وَوَهَبَ لِفَرِيقٍ ثَالِثٍ عِيُونًا سِتًّا، أَوْ ثَمَانِي، أَوْ عَشْرًا، أَوْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ.»



فَصَاحَ «رَشَادُ»: «مَا أَطْوَلَ أَرْجُلَكَ، يَا أُمَّ قَشْعَم!»
 فَصَحِكَ الْعَنْكَبَةُ قَائِلَةً: «لَا يُدْهِسُنُّكُمْ طُولُ أَرْجُلِي — أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْأَعَزَّاءُ — فَقَدْ خَلَقَهَا اللهُ كَذَلِكَ لِتُسَاعِدَنِي عَلَى الْجُرْيِ فِي خِيفَةِ نَادِرَةِ. وَقَدْ مَيَّرَنَا اللهُ — سُبْحَانَهُ — بِالنَّشَاطِ وَالسَّرْعَةِ. وَلَوْ تَأَمَّلْتُمْ مَخَالِبِي الْقَوِيَّةَ، لَأَشْتَدَّ عَجْبُكُمْ، وَأَنْسَتُكُمْ دَهْشَتُكُمْ مِنْهَا كُلَّ شَيْءٍ.»

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «وَأَيُّ مِيزَةٍ فِي هَذِهِ الْمَخَالِبِ الَّتِي تُزْهِينَ بِهَا؟»
 فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «لَقَدْ خَصَّنِي اللهُ بِهَا، لِيُمْكِّنَنِي مِنَ الْفَتَكِ بِالْحَشْرَاتِ الضَّارَّةِ، الَّتِي تُؤْذِيكُمْ، وَتَنْغُصُ عَلَيْكُمْ حَيَاتِكُمْ. وَلَوْلَانَا لَأَمْتَلَأَتِ الدُّنْيَا بِتِلْكَ الْحَشْرَاتِ الَّتِي تُهْلِكُ حَرْتَكُمْ، وَتَعِيثُ فِي أَرْضِكُمْ وَحُقُولِكُمْ فَسَادًا.»

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «لَقَدْ خَلَقَكُمْ اللهُ — مَعْشَرَ الْعِنَاكِبِ — رَحْمَةً بِالنَّاسِ، فَمَا بِالْكُمْ لَا تَنْتَشِرُونَ فِي بِلَادِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، لِتَقْضُوا عَلَى الْحَشْرَاتِ الْمُؤْذِيَةِ؟»
 فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «إِنَّا قَلَمَّا يَخْلُو مِنَّا بَلَدٌ، أَوْ بَيْتٌ، أَوْ حَقْلٌ؛ مِنْ حَطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى أَقَاصِي الشَّمَالِ. وَلَوْلَانَا لَأَمْتَلَأَ الْجَوُّ بِالذُّبَابِ وَالْبَعُوضِ، وَأَشْبَاهِهَا مِنَ الْحَشْرَاتِ الْمُؤْذِيَةِ.»

فَقَالَ «رَشَادُ»: «فَمَا بِالْكَ تَأَلَّفَيْنِ الْأَمَاكِنَ الْقَدِرَةَ، وَالْأَرْجَاءَ الْمَهْجُورَةَ، وَتَوَثَّرْتِنَهَا عَلَى الْجِهَاتِ النَّظِيفَةِ؟»

فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «إِنَّا نَكْتُرُ فِي تِلْكَ الْأَمَاكِنِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْحَشَرَاتِ الصَّارَةَ تَكْتُرُ فِيهَا، وَهِيَ مَصْدَرُ غَدَائِنَا الَّذِي نَقْتَاتُ بِهِ.»

فَقَالَ «رَشَادُ»: «إِنَّكَ ضَعِيفَةٌ، لَا قُوَّةَ لَكَ، وَمَا أَرَى حُيُوطَكَ إِلَّا وَاهِيَةً، فَكَيْفَ تَزْعُمِينَ أَنَّكَ قَادِرَةٌ عَلَى اقْتِنَاصِ الْحَشَرَاتِ فِيهَا؟»

فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «إِنِّي — عَلَى ضَعْفِي — بَارِعَةٌ الْحِيلَةَ، وَقَدْ وَهَبَنِي اللَّهُ صَبْرًا وَجَلَدًا

نَادِرَيْنِ. وَقَلَّمَا تَنْجُو فَرِيسَةٌ مِنْ بَيْنِ مِخْلَبِيَّ. وَإِنِّي لِأَسْتَدْرِجُهَا، حَتَّى تَقَعَ فِي حِبَالْتِي؛

فَأَنْقُتَ فِيهَا مِنْ مِخْلَبِيَّ السَّمِّ، حَتَّى يُنْهَكَ قُوَاهَا، وَلَا تَجِدَ سَبِيلًا إِلَى النِّجَاةِ، وَيَكُونَ

نَصِيبَهَا الْهَلَاكُ؛ مَهْمَا بَدَلْتَ مِنْ جُهْدٍ وَمُقَاوَمَةٍ. وَإِنِّي لِأَثْبُ عَلَى الذُّبَابَةِ فَلَا أَكَادُ أُخْطِئُهَا.

أَمَّا حُيُوطِي هَذِهِ فَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ — مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ — كَيْفَ يَنْسُجُونَ شِبَاكَهُمْ وَثِيَابَهُمْ

عَلَى مَنَوَالِهَا. وَقَدْ حَاوَلُوا — مُنْذُ الْقَرْنِ الْمَاضِي — أَنْ يَنْسُجُوا مِنْ حُيُوطِي ثِيَابَهُمْ، فَلَمْ

يُوقِفُوا إِلَى ذَلِكَ. وَلَكِنَّ شَغَفَهُمْ بِدَقَّةِ هَذَا النَّسِجِ وَإِحْكَامِهِ قَدْ حَفَزَهُمْ إِلَى تَدْلِيلِ الْعَقَبَاتِ

فِي سَبِيلِ هَذِهِ الْغَايَةِ. وَمَا زَالُوا يُعْمَلُونَ الْحِيلَةَ، حَتَّى وَفَّقَ الصَّيْنِيُّونَ — مُنْذُ عَهْدِ قَرِيبٍ

— إِلَى أَخْذِ قِطْعٍ مِنْ نَسِيجِ الْعَنَاكِبِ، وَأَرْسَلُوهَا إِلَى «أُورُبَّةَ» لِتَخْلَطَ بِالْحَرِيرِ، فَتَزِيدَ النَّسِجَ

رُوعَةً وَجَمَالًا. وَقَدْ لُقُّوا فِي ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ الْعَنَاءِ مَا لَا يُوصَفُ.»



(٩) فَخْرُ العَنَاكِبِ

وَأَمْتَلَأَتِ العَنْكَبَةُ زَهْوًا وَخِيَلَاءَ، بِمَا حَصَّهَا اللهُ بِهِ مِنْ مَزَايَا نَادِرَةٍ، فَاِنطَلَقَتْ تُغْنِي نَشِيدَ العَنَاكِبِ، فِي صَوْتِ وَاضِحِ النَّبْرَاتِ:

نَحْنُ العَنَاكِبُ، أَبْنَاءُ الرُّتِيَلَاءِ
وَفَوْقَ مُرْتَفِعٍ، أَوْ فَوْقَ مُنْخَفِضٍ
وَتَحْتَ أَقْبِيَّةٍ، أَوْ فَوْقَ رَابِيَّةٍ،
وَفِي المَنَازِلِ: كَمِ نَبِييِ مَسَاكِنِنَا
وَرُبَّمَا نَحْفِرُ الأَجْحَارَ نَسْكُنُهَا
وَقَدْ جَعَلْنَا لَهَا بَابًا يُؤَمِّنُنَا
نَبِييِ البُيُوتِ عَلَى الأشْجَارِ وَالمَاءِ
وَفِي البَسَاتِينِ، أَوْ فِي عَرْضِ بَطْحَاءِ
وَفِي شَفَا حُفْرَةٍ، أَوْ فَوْقَ عَلِيَاءِ
تَحْتَ السُّقُوفِ، وَفِي أَرْكَانِ أَفْنَاءِ
وَقَدْ نَعْمْنَا بِهَا، فِي جَوْفِ ظَلْمَاءِ
— إِذَا أَقْمْنَا بِهَا — مِنْ شَرِّ أَعْدَاءِ

نَظَلُّ فِيهَا — نَهَارًا — وَاِدْعِينَ، فَإِنْ
 نَسَعَى إِلَى الْقُوتِ مَهْمَا عَزَّ مَطْلَبُهُ
 وَكَمْ نُهَيْرَ نَسَجْنَا — فَوْقَ صَفْحَتِهِ
 بَيْتًا — عَلَى جَنَابَاتِ الْمَاءِ — نَزَفَعُهُ
 يَا حُسْنَ هَنْدَسَةٍ، مِنْ نَاسِجٍ صَنَعَ
 وَكَمْ أَسْرُنَا بَعُوضًا — فِي جِبَالَتِنَا —
 تَهْوِي الْفَرَائِسُ أَسْرَى — فِي حَبَائِلِنَا
 فَتَنَفَّتِ السَّمَّ فِيهَا مِنْ مَخَالِبِنَا
 وَهَلْ نَسَجْتُمْ شَبَاكَ الصَّيْدِ مِنْ قَدَمِ

جَنَّ الظَّلَامُ، دَرَجْنَا بَيْنَ أَحْيَاءِ
 فِي كُلِّ دَانَ — مِنَ الْأَقْطَارِ — أَوْ نَائِي
 بَيْتًا يُحَيْرُ الْأَبَابَ الْأَبَاءِ
 مِنَ الْخَيْوِطِ، فَيَبْدُو بِهَجَّةِ الرَّائِي
 يَسْمُو عَلَى كُلِّ نَسَاجٍ، وَوَشَاءِ!
 وَكَمْ قَنَصْنَا ذُبَابًا، بَعْدَ إِغْرَاءِ
 مِنْ كُلِّ بَلْهَاءٍ، تَمْشِي خَبْطَ عَشَوَاءِ
 فَلَا تَرَى — بَعْدَ حِينٍ — غَيْرَ أَشْلَاءِ!
 إِلَّا مُحَاكِيَيْنَ مِثْوَالِ الرُّتَيْلَاءِ؟!

(١٠) بَيْنَ «صَفَاءٍ» وَ«أُمَّ قَشَعَمٍ»

وَقَدْ أَعْجَبَ الْإِخْوَةَ الْأَشْقَاءُ الثَّلَاثَةَ بِهَذَا النِّشِيدِ الرَّائِعِ، وَشَكَرُوا لِلْعَنْكَبَةِ هَذِهِ الْفُرْصَةَ
 السَّعِيدَةَ، وَتِلْكَ الْفَوَائِدَ الطَّرِيفَةَ الَّتِي هَيَّأَتْهَا لَهُمْ.

وَهُمُوا بِالْإِنْصِرَافِ، وَلَكِنَّ «صَفَاءً» قَالَ لَهَا، وَهُوَ يُودِعُهَا: «لَقَدْ حَدَّثْتَنِي أَنَّ لَكَ إِخْوَةً
 مِنَ الْعِنَاكِبِ، فَأَيْنَ هُمْ؟»

فَقَالَتِ الْعَنْكَبَةُ: «إِنَّ الْعِنَاكِبَ لَا تَكَادُ تَكْبُرُ حَتَّى تَفْتَرِقَ، ثُمَّ لَا يُمَيِّزُ أَحَدٌ مِنَ الْأَشْقَاءِ
 أَخَاهُ، إِذَا رَأَهُ. وَإِنَّ أُمَّ الْعِنَاكِبِ — إِذَا ارْتَحَلَتْ مِنْ بَيْتِهَا — وَضَعَتْ بَيْضَهَا فِي كَيْسٍ تَنْسُجُهُ
 مِنْ خَيْوِطِهَا، ثُمَّ تَحْمِلُهُ — فِي حَذَرٍ وَعِنَايَةٍ نَادِرَيْنِ — وَتُدَافِعُ عَنْهُ دِفَاعَ الْمُسْتَمِيتِ. فَإِذَا
 فُقِسَ الْبَيْضُ حَمَلَتْ صِغَارَهَا عَلَى ظَهْرِهَا؛ حَتَّى إِذَا كَبُرُوا تَرَكَتْهُمْ، فَإِذَا رَأَتْ وَاحِدًا مِنْهُمْ
 — بَعْدَ ذَلِكَ — لَمْ تُعَدِّ تَمْيِزُهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا تَتَرَدَّدُ فِي افْتِرَاسِهِ، إِذَا لَقِيَتْهُ فِي الطَّرِيقِ لِتَتَغَدَّى
 بِهِ! وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَزَادَ عَدَدُنَا زِيَادَةً عَظِيمَةً!»

فَقَالَ لَهَا «صَفَاءً»، وَقَدْ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ مِمَّا سَمِعَ:

قَدْ تَأْكُلُ الْعَنْكَبَةُ الْجُنْدَبَا وَتُهْلِكُ الزُّنْبَارَ وَالْعَقْرَبَا
 وَكَمْ بَعُوضٍ — فِي جِبَالَتِهَا — رَاحَ أُسِيرًا، يَبْتَغِي مَهْرَبَا

فَحَدَّرَتْ - بِالسَّمِّ - أَعْصَابَهُ،
وَقَدْ يَصِيدُ الضَّفْدِعُ العَنْكَبَا،
وَتَأْكُلُ القِطَّةُ فَأْرًا، وَلَا
وَقَدْ أَلْفَنَّا كُلَّ هَذَا، فَلَمْ
لَكِنْ مَا حَيْرَ أَلْبَابِنَا،
وَأَنْشَبَتْ - فِي جِسْمِهِ - المِخْلَبَا
كَمَا تَصِيدُ البُومَةُ الأَرْنَابَا
تُبْقِي عَلَى فَرْخِ صَغِيرِ حَبَا
نَدْهَشَ لَهُ، مَهْمًا بَدَا مُغْرِبَا
أَنْ تَأْكُلَ العَنْكَبَةُ العَنْكَبَا.

فَأَجَابَتْهُ «أُمُّ قَشَعِمٍ»:

إِنَّ تَأْكُلَ العَنْكَبَةُ العَنْكَبَا
أَوْ تَأْكُلِ الآبَاءُ أَبْنَاءَهَا
أَوْ تَأْكُلِ الزَّوْجَاتُ أَزْوَاجَهَا،
أَمَا تَرَى الأَسْمَاكَ قَدْ شَابَهَتْ
تَلْتَهُمُ الكُبْرَى صَغِيرَاتِهَا،
وَأَنْتُمْ النَّاسَ - عَلَى رُشْدِكُمْ -
لَمْ تَرَحْمُوا طَيْرًا - عَلَى غُصْنِهِ -
وَلَمْ تُغَيِّثُوا بَائِسًا مُعْدِمًا
وَكَمْ أَكَلْتُمْ لَحْمَ إِخْوَانِكُمْ
فَلَا تَعِيبُونَا - بِأَدْوَانِكُمْ -
أَوْ تَأْكُلِ الأُمُّ ابْنَهَا الأَنْجَبَا
أَوْ تَأْكُلِ الأُخْتُ أَخَا أَوْ أَبَا
فَلَيْسَ هَذَا حَادِثًا مُغْرِبَا
- فِي قَتْلِ مَا تُنَجِّبُهُ - العَنْكَبَا؟
وَيَأْكُلُ الحُوتُ ابْنَهُ الأَقْرَبَا!
صِرْتُمْ لَأَمْثَالِ الأَذَى مَضْرِبَا
رَتَّلَ لَحْنًا شَائِقًا مُعْجَبَا
وَلَمْ تُقِيلُوا عَائِرًا مُذْنِبَا
مَيِّتًا، وَلَمْ تَرَعَوْهُمْ غُيْبَا
فَقَدْ عَدَا مَنْ عَابَنَا أَعْيَبَا!

(١١) سِنَاعَةُ الغَيْبَةِ

فَصَاحَتْ «سُعَادُ»، مَدْهُوشَةً: «لَسْتُ أَفْهَمُ مَاذَا تَعْنِينَ - يَا «أُمُّ قَشَعِمٍ» - بِقَوْلِكَ: «إِنَّ
النَّاسَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ إِخْوَانِهِمْ مَيِّتًا!» فَإِنِّي لَمْ أَرِ، وَلَمْ أَسْمَعْ، فِي حَيَاتِي كُلِّهَا، أَنَّ أَحَدًا مِنْ
النَّاسِ قَدْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ، أَوْ صَاحِبِهِ، قَطًّا!»
فَصَحِكَ «صَفَاءُ» مِنْ سَدَاجَةِ أُخْتِهِ «سُعَادَ»، وَقَالَ لَهَا: «إِنَّ «أُمَّ قَشَعِمٍ» لَا تَعْنِي أَنَّ
النَّاسَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ إِخْوَانِهِمْ حَقًّا؛ وَلَكِنَّهَا تَعْنِي أَنَّهُمْ يَعْتَابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَمَنْ اغْتَابَ
صَاحِبَهُ، فَكَأَنَّهُ قَدْ أَكَلَ لَحْمَهُ مَيِّتًا.»

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «أه! لَقَدْ فَهَمْتُ مَا تَعْنِيهِ «أُمَّ قَشَعَمٍ» الْآنَ. وَلَعَلَّهَا تُشِيرُ إِلَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. فَقَالَ «صَفَاءُ»: «صَدَقْتِ يَا «سُعَادُ». فَإِنَّ «أُمَّ قَشَعَمٍ» لَمْ تَعْنِ إِلَّا مَا فَهَمْتِهِ تَمَامًا. وَلَوْ أَمَعَنْتِ الْفِكْرَ — يَا أُخْتِي — لَرَأَيْتِ أَنَّ مَنْ يَغْتَابُ صَاحِبَهُ، يُحِيلُ إِلَى مَنْ يَرَاهُ أَنَّهُ يَنْهَشُ لَحْمَهُ، وَلَيْسَ أَصْدَقَ مِنْ هَذَا التَّمثِيلِ، وَلَا أَدَقَّ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ!»

(١٢) وَدَاعُ «أُمَّ قَشَعَمٍ»

فَقَالَ «رَشَادُ»: «لَقَدْ تَأَخَّرْنَا عَنْ مَوْعِدِ الْعُودَةِ إِلَى دَارِنَا. وَإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ يَقْلُقَ أَبْوَانَا عَلَيْنَا وَيَنْزِعِجَا، إِذَا لَمْ نَعُدْ إِلَيْهِمَا تَوًّا». فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «صَدَقْتَ يَا أَخِي، فَقَدْ شَغَلْنَا جِوَارُ «أُمَّ قَشَعَمٍ» الْمُمْتَعُ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَى الْبَيْتِ.»

فَاسْتَأْذَنَ «صَفَاءُ» صَاحِبَتَهُ الْعَنْكَبَةَ فِي الذَّهَابِ، وَوَعَدَهَا بِالْعُودَةِ إِلَيْهَا — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — لِلِاسْتِرَادَةِ مِنْ حَدِيثِهَا الشَّهِيِّ فَوَدَّعَتْهُ، شَاكِرَةً لَهُ حُسْنِ تَلَطُّفِهِ، وَمَوْفُورٍ أَدْبِهِ. فَأَنْشَدَهَا «صَفَاءُ» الْأَبْيَاتَ التَّالِيَةَ:

سَلِمَتِ يَا «أُمَّ قَشَعَمٍ»	فَإِنَّ قُرْبِكَ مَعْنَمٌ
أَمْتَعْتِنَا بِحَدِيثِ،	مِنَ الطَّرَائِفِ مُلْهَمٌ
وَأَنْتِ خَيْرُ سَمِيرِ،	وَمُؤْنِسِ وَمُكَلِّمِ
وَأَنْتِ خَيْرُ حَكِيمِ،	وَأَنْتِ خَيْرُ مُعَلِّمِ
وَلَسْتُ أَنْسَاكِ يَوْمًا	مَا عِشْتُ يَا أُمَّ قَشَعَمِ.

(١٣) بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

وَلَمَّا عَادَ الْأَشْقَاءُ الثَّلَاثَةُ وَجَدُوا أَبْوِيَهُمْ يَنْتَظِرَانِهِمْ بِفَارِغِ الصَّبْرِ.

وَمَا كَادَ آبَاؤُهُمْ يَسْأَلَانِهِمْ عَنِ السَّبَبِ فِي تَأْخُرِهِمْ عَن مَوْعِدِ الحُضُورِ، حَتَّى أَفْضَوْا إِلَيْهِمَا بِكُلِّ مَا دَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ «أُمَّ قَشْعَمٍ» مِنْ أَحَادِيثِ طَرِيفَةٍ، فَابْتَهَجَ «أَبُو صَفَاءٍ» بِمَا سَمِعَ مِنْ بَنِيهِ، وَأَمَرَ «صَفَاءً» أَنْ يُحْضِرَ كِتَابًا بِعَيْنِهِ، فَوْقَ مَكْتَبِهِ. فَلَمَّا أَحْضَرَهُ «صَفَاءً» رَغِبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ أَنْ يَنْظُرَ فِي الصَّفْحَةِ الثَّلَاثَةِ بَعْدَ الْمِائَةِ، مِنْ الْجُزْءِ الثَّانِي، مِنَ الْكِتَابِ.

فَقَالَتْ «سُعَادُ»: «أَيُّ كِتَابٍ هَذَا يَا صَفَاءُ؟»

فَأَجَابَهَا أَبُوهَا: «إِنَّهُ كِتَابُ نَفِيسٍ، اسْمُهُ «دُرُوسُ التَّأَمُّلِ فِي مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ»، وَأَنَا أَوْصِيكُمْ بِقِرَاءَتِهِ وَدَرْسِهِ.»

فَانْطَلَقَ «صَفَاءً» يَقْرَأُ ذَلِكَ الْفَصْلَ الرَّائِعَ — وَعُنوانُهُ: «بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ» — بِصَوْتٍ وَاضِحٍ، جَلِيٍّ النَّبْرَاتِ: «تَنْسُجُ الْعَنْكَبُوتُ — كَعَنْكَبُوتِ الْحَدِيقَةِ — بَيْتَهَا فِي ثَنَائَا الْأَحْجَارِ، وَبَيْنَ الْأُورَاقِ وَالْأَغْصَانِ، أَوْ فِي زَوَايَا الْجُدْرَانِ الْقَدِيمَةِ أَوْ الْمَهْجُورَةِ، أَوْ الْأَمَاكِنِ الْقَدْرَةِ. وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ أَجْمَلُ الْأَنْسِجَةِ الَّتِي يَنْسُجُهَا حَيَوَانٌ. وَتَبْدِئُ فِي عَمَلِ بَيْتِهَا بِمَدِّ الخُيُوطِ الْقَوِيَّةِ الرَّئِيسَةِ الْأَسَاسِيَّةِ أَوَّلًا. ثُمَّ تُتْبِعُهَا بِخُيُوطِ شُعَاعِيَّةٍ، مِنْ نَقْطَةٍ إِلَى أُخْرَى، خِلَالَ الْمَسَافَاتِ الْمُتَّسِعَةِ، بِحَيْثُ تَنْتَقِيبُ كُلُّهَا فِي الْمَرْكَزِ. ثُمَّ تَمُرُّ بِخَيْطٍ لَطِيفٍ، مُبْدِئَةً مِنْ الْمَرْكَزِ، مَارَةً بِتِلْكَ الخُيُوطِ بِشَكْلِ لَوْلَبِيٍّ. وَلَا تَقْتَصِرُ عَلَى تَقَاطُعِ الخُيُوطِ الشُّعَاعِيَّةِ مَعَ الخَيْطِ اللَّوْلَبِيِّ، بَلْ تَجْتَهِدُ فِي تَثْبِيثِهَا مَعًا، بِنَقْطِ صَمْغِيَّةٍ مِنَ السَّائِلِ الَّذِي تُفْرِزُهُ. وَبَعْدَ تَمَامِ الْبَيْتِ تَقْطَعُ مَرْكَزَهُ، وَتَرْبِطُهُ بِمُخْلِيبِهَا، بِخَيْطٍ طَوِيلٍ، تَسْتَعِدِّمُهُ كَأَسْلَاكِ الْبَرْقِ. وَلَهَا مَهَارَةٌ فَائِقَةٌ فِي تَرْتِيبِ خُيُوطِهَا، وَاسْتِخْدَامِهَا فِي الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ الْوَاسِعَةِ. فَإِنَّهَا تُغْزَلُ خَيْطًا طَوِيلًا وَتَدْلِيهِ، حَيْثُ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ إِلَى الْغُصْنِ الْأَخْرِ، أَوْ الْجِدَارِ، مَثَلًا؛ فَيَعْلَقُ بِهِ.

وَتَتَمَّمُ بِنَاءَ بَيْتِهَا فِي نَحْوِ سَاعَةٍ زَمَنِيَّةٍ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَيْهِ لِتَرْقُبَ — عَن كَثْبٍ — كُلَّ حَشْرَةٍ تَطْنُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ.

العنكبُ الحزين



وَمَا أَسْرَعَ مَا يُوجَدُ الْإِضْطِرَابُ وَالْهَيْجَانُ فِي بَيْتِهَا. وَإِذَا بِالْفَرِيَسَةِ الْمُعْغَلَّةِ قَدْ وَقَعَتْ فِيهِ، ثُمَّ هِيَ تُرِيدُ أَنْ تُكَاوَلَ الْخَلَاصَ مِنْهُ، فَلَا يُجِدِيهَا عَمَلُهَا!



وَالْعَنْكَبُوتُ سَرِيعَةٌ جِدًّا، لِأَنَّهَا سُرْعَانَ مَا تَهْجُمُ عَلَى الْفَرِيسَةِ، وَتَرْمِي بِنَفْسِهَا، قَابِضَةً عَلَيْهَا، فَتُنَشِبُ مَخَالِبَهَا الْقَاسِيَةَ، الَّتِي هِيَ مَحَاقِنُ سَامَةٌ؛ ثُمَّ تَلْفُهَا فِي خُيُوطِ أُخْرَى، وَتُوْتِقُّهَا وَثَاقًا تَامًّا، فَتُصْبِحُ مَشْدُودَةَ الْأَطْرَافِ، مُهْشَمَةَ الْجِسْمِ، مَعْضُوضَةً، مَسْمُومَةً، وَحِينَئِذٍ تَجْرُهَا إِلَى عَرِينِهَا، عَلَامَةً عَلَى انْتِصَارِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَبْتَلِعَهَا مِنْ فَوْرِهَا، وَإِمَّا أَنْ تَتْرُكَهَا مُكَبَّلَةً فِي أَغْلَالِهَا الْحَرِيرِيَّةِ، دُخْرًا لِمَادِبَةِ أُخْرَى.»

(١٤) قِصَّةُ الْعَنْكَبِ الحَزِينِ

وَلَمَّا انْتَهَى «صَفَاءُ» مِنْ قِرَاءَةِ هَذَا الْفَصْلِ الْمُمْتَعِ أُعْجِبَ أَحْوَاهُ بِدَقَّةِ مَا يَخْوِيهِ مِنْ بَرَاعَةِ الْوَصْفِ، وَحُسْنِ الْأَدَاءِ.

فَقَالَ «أَبُو صَفَاءٍ»: «لَقَدْ ذَكَرْتُ قِصَّةَ فُكَاهِيَّةٍ، قَرَأْتُهَا — مُنْذُ أَعْوَامٍ — فِي كِتَابِ عِلْمِي، جَلِيلِ الْقَدْرِ، عُنْوَانُهُ: «فُصُولٌ فِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ»، وَلَمْ أُنْسَ رَوْعَةَ هَذِهِ الْقِصَّةِ إِلَى الْيَوْمِ. وَلَعَلِّي قَدْ أَحْضَرْتُ مَعِيَ هَذَا السَّفَرَ النَّفِيسَ — فِي جُمْلَةٍ مَا أَحْضَرْتُهُ مِنَ الْكُتُبِ قُبَيْلَ سَفَرِي — فَمَا أَحْسَبُنِي نَسِيْتُهُ.»

ثُمَّ أَسْرَعَ «أَبُو صَفَاءٍ» إِلَى مَكْتَبَتِهِ الْحَافِلَةِ، وَالْقَى عَلَيْهَا نَظْرَةً وَاجِدَةً: فَرَأَى الْكِتَابَ فِي مَكَانِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ. وَمَا إِنْ أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ، حَتَّى أَبْصَرَ وَرَقَةً بَيْضَاءَ فِي ثَنَائِيَا صَحَائِفِهِ، وَكَانَ قَدْ وَضَعَهَا أَمَامَ الصَّفْحَةِ الْأُولَى بَعْدَ السَّتِّينَ وَالْمِائَتَيْنِ، لِتَذَكُّرِهِ بِمَوْضِعِ الْقِصَّةِ الْمُعْجِبَةِ: «قِصَّةِ الْعُكَّاشِ» — ذَلِكَ الْعَنْكَبُ الْحَزِينُ — مِنَ الْكِتَابِ.

فَالْتَفَتَ «أَبُو صَفَاءٍ» إِلَى بَنِيهِ قَائِلًا: «لَقَدْ قَرَأْتُ قِصَّةَ «أَبِي حَيْثِمَةَ» أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ مَرَّةً، فَلَمْ تَبَلِّ جِدَّتُهَا، وَلَمْ تَخْلُقْ بَهْجَتُهَا وَسِحْرُهَا، وَأَنَا أُوْصِيكُمْ — أَيُّهَا النُّجَبَاءُ — أَنْ تُنْعِمُوا النَّظَرَ فِي دَقَائِقِهَا، بَعْدَ أَنْ يَتْلَوْهَا عَلَيْنَا صَفَاءً.»

فَأَخَذَ «صَفَاءُ» الْكِتَابَ — بِبِمِينِهِ — وَقَرَأَ عَلَى إِخْوَتِهِ مَا يَأْتِي:

(١٥) حَقِيقَةٌ فِي فُكَاهِيَّةٍ

«دَخَلْتُ غَابَةً بِاسِقَةَ الْأَشْجَارِ، يَجْرِي فِيهَا نَهْرٌ مُتَعَرِّجٌ. فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ شَاهَدْتُ عَلَى إِحْدَى ضِفْتَيْهِ عَنكَبًا، أَسْمَرَ اللَّوْنِ، جَالِسًا عَلَى حَجَرٍ، يُنْظَفُ وَجْهُهُ بِيَدَيْهِ، كَمَا يَفْعَلُ الذُّبَابُ. وَهُوَ نَحِيفٌ، خَائِرُ الْقَوَى. فَرَأَيْتُ أَنْ أَفْضَلَ مَا أَفْتَتِحُ بِهِ الْحَدِيثَ مَعَهُ، السُّؤَالُ عَنِ صِحَّتِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: «أَرَاكَ مُنْحَرَفَ الْمَزَاجِ، فَمَا يُؤَلِّمُكَ؟»

فَقَالَ: «إِنِّي مَرِيضٌ، وَخَائِفٌ، وَقَلْبٌ.»

فَقُلْتُ: «مَا الْخَبْرُ؟ وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِي قَطُّ أَنْ عَنكَبًا مِثْلَكَ يَمْرُضُ وَيَخَافُ، وَقَدْ حَصِصَتْ بِقُوَّةٍ لَمْ يُحْصَ بِهَا سِوَاكَ!»

فَقَالَ الْعَنْكَبُ: «وَهَذِهِ إِحْدَى الْبَلِيَّتَيْنِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَطُنُّونَ الطُّنُونَ، وَيَسْتَنْتَجُونَ النَّتَائِجَ، مِنْ مُقَدَّمَاتٍ فَاسِدَةٍ لَا تُنتِجُ شَيْئًا. وَلِذَلِكَ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ قِصَّتِي تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ، فَتَرَى الْأُمُورَ عَلَى حَقِيقَتِهَا. أَتَعْلَمُ أَنَّنَا — مَعْشَرَ الْعَنَّاكِبِ — مِنْ أَكْثَرِ الْمَخْلُوقَاتِ اجْتِهَادًا، وَأَوْسَعِهِمْ حِيلَةً؟ فَنَحْنُ أَوْلُ مَنْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ بِعَيْرِ جَنَاحٍ. نَعَمْ، إِنَّ الْخَفَافِيشَ تَطِيرُ،

وَلَا جَنَاحَ لَهَا. وَلَكِنَّ بَيْنَ قَوَائِمِهَا وَظَهْرِهَا أَغْشِيَةٌ. وَمَعَ حِرْمَانِنَا تِلْكَ الْأَعْشِيَّةَ تَمَكَّنَّا مِنْ رُكُوبِ الْهَوَاءِ، وَلَمْ يُشَارِكُنَا فِي ذَلِكَ إِلَّا الْإِنْسَانُ. لَكِنَّا سَبَقْنَاهُ بِقُرُونٍ كَثِيرَةٍ. قُلْ لِي: مَتَى اسْتَطَاعَ قَوْمُكَ الطَّيْرَانَ؟»

فَقُلْتُ: «فِي الْعَامِ السَّابِعِ بَعْدَ التَّسْعِمَائَةِ وَالْأَلْفِ.»

فَقَالَ: «هَكَذَا ظَنَنْتُ. أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ رَكَبْنَا الْهَوَاءَ، قَبْلَ عَصْرِ الْعُمَرَانَ! وَإِلَيْكَ شَرَحَ

قِصَّتِي:

حَدَّثَ — مُنْذُ سَنَتَيْنِ — أَنَّ أُمِّي كَانَتْ جَالِسَةً فِي عُقْرِ بَيْتِهَا، فَأَتَاهَا الطَّلُقُ، وَجَعَلَتْ تَبِيضُ بَيْضُهَا، وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى، وَظَلَّتْ تَبِيضُ إِلَى أَنْ بَلَغَ عَدْدُ مَا بَاضَتْهُ — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — ثَلَاثِمِائَةَ بَيْضَةٍ. وَخَافَتْ أَنْ تَتَفَرَّقَ الْبُيُوضُ، فَلَا يَعُودُ لَهَا سَبِيلٌ إِلَيْهَا؛ فَجَعَلَتْ تَعْرِزُ الْخُيُوطَ مِنْ مَغَارِلِهَا: وَهِيَ سِتُّ أُنَابِيبَ فِي ذَنْبِهَا، تُفَرِّزُ الْخُيُوطَ الْحَرِيرِيَّةَ الدَّقِيقَةَ، الَّتِي تُسْمُونَهَا: نَسِيجَ الْعَنْكَبُوتِ، وَتَضْرِبُونَ بِهَا الْمَثَلُ فِي الْوَهْنِ لِدِقَّتِهَا. وَهِيَ — لَوْ جُمِعَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ — لَصَارَتْ أَمْتَنَ مِنْ أَسْلَاقِ الْحَدِيدِ! فَأَفْرَزْتُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْخُيُوطِ، وَلَقَّتْ بَيْضُهَا بِهَا، وَكَرَّرْتُ لَفَّهُ، حَتَّى صَارَتْ الْبُيُوضُ كُلُّهَا كُرَّةً كَبِيرَةً تُحِيطُ بِهَا خُيُوطُ صُفْرٍ، كَالزَّعْبِ الْوَاهِي، أَوْ كَرِيشِ النَّعَامِ. وَلَمَّا تَمَّ لَهَا ذَلِكَ، حَمَلْتُ هَذِهِ الْكُرَّةَ بَيْنَ فُكَيْهَا، وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِهَا قَاصِدَةً أَنْ تَصْعَدَ بِهَا إِلَى مَكَانٍ عَالٍ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ مَاءُ النَّهْرِ إِذَا فَاضَ فِي الشِّتَاءِ. وَبَعْدَ تَعَبٍ كَبِيرٍ، وَجَهْدٍ عَنيفٍ، وَصَلْتُ إِلَى الْمَكَانِ الْعَالِي، وَوَضَعْتُ بُيُوضَهَا فِي ثَقْبٍ غَائِرٍ بَيْنَ الصُّخُورِ، ثُمَّ عَادْتُ إِلَى بَيْتِهَا عَلَى صِفَةِ النَّهْرِ.

وَلَوْ رَأَى — أَنَا وَأَخَوَاتِي — أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَالْأَيَّامِ التَّالِيَةِ، لَظَنْنَا بُزُورًا دَقِيقَةً، اجْتَمَعَ عَلَيْهَا زَعْبُ الْحَرِيرِ. وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَزْتَحْ بَالُنَا دَقِيقَةً مِنَ الْخَطَرِ؛ فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ زَارَنَا طَائِرٌ: قَبِيحُ الْمَخْبَرِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَبِيحَ الْمَنْظَرِ، مُبْرَقَشٌ بِالزَّرْقَةِ وَالصُّفْرَةِ، لِكُنِّي يُخْفِي شَرَّاسَةَ أَخْلَاقِهِ. وَجَعَلَ يُفْتَشُّ بَيْنَ الشُّفُوقِ وَالنَّخَارِيبِ، وَيَسْتَخْرِجُ الدِّيدَانَ وَالْحَشْرَاتِ مِنْهَا، وَيَأْكُلُهَا. وَلِحَسَنِ حَظِّنَا، كَانَتْ أُمْنَا قَدْ أَخْفَتْنَا فِي نَقْرَةٍ عَمِيقَةٍ؛ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْنَا. وَمَرَّ بِنَا فَصَلَ الشِّتَاءَ وَنَحْنُ بَيْضُ، ثُمَّ خَرَجْنَا مِنْ بُيُوضِنَا، فِي الرَّبِيعِ، وَلَمْ نَخْرُجْ مِنْهَا دِيدَانًا، بَلْ خَرَجْنَا عَنَّا كَبَّ دَفْعَةً وَاحِدَةً. وَهَذَا أَمْرٌ يَسْتَرَعِي الْإِنْتِبَاهَ؛ فَإِنَّ الْفَرَّاشَ وَالنَّحْلَ، وَالْخَنَافِسَ، تَخْرُجُ كُلُّهَا دِيدَانًا صَغِيرَةً، ثُمَّ تَمُرُّ بِأَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ كَمَالِ

النُّمُو. أَمَا نَحْنُ فَمُمْتَازُونَ عَلَيْهَا كُلُّهَا: لِأَنَّنا نَخْرُجُ مِنَ البَيْضِ عَنَّا كِبَ كَامِلَةً، كَمَا يَخْرُجُ أَصْدِقَاؤُنَا الجَنَادِبُ. خَرَجْنَا مِنْ بِيُوضِنَا، وَلَكِنَّا كُنَّا صِغَارًا كَرَّعُوسِ الدَّبَابِيسِ. وَلَمَّا خَرَجْنَا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرَى الْأَشْيَاءَ وَاضِحَةً، لِأَنَّنا كُنَّا مُحَاطَاتٍ بِأَغْشِيَةٍ دَقِيقَةٍ، صِيَانَةٌ لَنَا كَمَا تُصَانُ اللَّالِئِيُّ فِي أَصْدَافِهَا!

وَلَقَدْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ مَزَقَ كَيْسَهُ، وَخَرَجَ مِنْهُ. فَلَمَّا انْجَلَّتْ عَيْنَايَ ذَهَلْتُ عَنْ نَفْسِي، بِمَا رَأَيْتُهُ حَوْلِي مِنْ اتِّسَاعِ الوَادِي الَّذِي وَجَدْتُ فِيهِ، وَكَبَّرَ كُلُّ مَا حَوْلِي بِالنَّسْبَةِ إِلَيَّ؛ فَكُنْتُ أَرَى النَّبْتَةَ الصَّغِيرَةَ فَأَحْسَبُهَا شَجَرَةً كَبِيرَةً. لَكِنِّي سُرْعَانَ مَا شُغِلْتُ عَنْ ذَلِكَ، بِمَا رَأَيْتُهُ حَوْلِي مِنْ كَثْرَةِ أَحْوَاتِي اللَّوَاتِي خَرَجْنَ مِنْ بِيُوضِهِنَّ مَنِي. وَبَيْنَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ سَمِعْتُ صَوْتًا يُخَاطِبُنَا، بِلَهْجَةِ الْأَمْرِ النَّاهِي؛ فَالْتَفَتُّ، وَإِذَا الْمُتَكَلِّمُ: عَنكَبَةٌ كَبِيرَةٌ جَالِسَةٌ فِي بَابِ بَيْتِهَا، وَهِيَ أَمَامَنَا فَأَصْغَيْنَا إِلَيْهَا؛ فَقَصَّتْ عَلَيْنَا خَبْرَ مَا أَصَابَهَا مِنَ الْعَنَاءِ بِسَبِينَا. أَمَا أَنَا فَلَمْ يُذْهِلْنِي خَبْرُهَا، قَدَرُ مَا أَذْهِلْنِي شَيْءٌ رَأَيْتُهُ تَحْتَهَا، كَأَنَّهُ عَنكَبٌ مَيِّتٌ.

فَلَمَّا أَتَمَّتْ حَدِيثَهَا، قُلْتُ لَهَا: «ما هذا الَّذِي أَرَاهُ تَحْتَ أَقْدَامِكِ يَا أُمَاهُ؟»

فَقَالَتْ: «هذا أَبُوكَ يَا وَلَدِي!»

فَقُلْتُ: «إِنِّي أَرَاهُ مَيِّتًا، لا حَرَكَ بِهِ!»

فَتَبَسَّسْتُ، وَقَالَتْ: «نَعَمْ، هُوَ مَيِّتٌ. فَقَدْ انْقَضَتْ أَيَّامُ السُّرُورِ، وَلَمْ يُعَدِّ لِي بِهِ أَرْبٌ؛ فَتَقَلَّتْهُ، وَمَصَّصْتُ دَمَهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا جِلْدُهُ، وَسَأَجْعَلُهُ فِرَاشًا لِي، وَهُوَ فِرَاشٌ وَثِيرٌ فِي لَيْلَةٍ نَدِيَّةٍ مِثْلَ هَذِهِ!»

فَقُلْتُ لَهَا: «هَلْ أَتَزَوَّجُ مَتَى كَبُرْتُ، وَآكُلُ زَوْجِي؟»

فَقَالَتْ: «لا. لِأَنَّكَ أَنْتَ ذَكَرٌ يَا وَلَدِي وَسَتَأْكُلُكَ زَوْجَتُكَ، كَمَا أَكَلْتُ أَنَا أَبَاكَ وَلا تَدْرُ

مَنِّي الْآنَ؛ لِأَنِّي أَحْيَانًا آكُلُ أَوْلَادِي أَيْضًا.»

هذا أَوَّلُ نَبَأٍ سَمِعْتُهُ فِي حَيَاتِي، فَمَا أَتَعَسَ هَذِهِ الْحَيَاةُ! هَلْ تَتَّصَرُّ حَيَاةً أَنْعَسَ مِنْهَا؟

فَقُلْتُ لَهُ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ أَنَّهُ عَنكَبٌ لا عَنكَبَةٌ: «الآنَ عَرَفْتُ: لِمَاذَا أَنْتَ خَائِفٌ، كَاسِفٌ

البال!»

فَقَالَ: «أَلَا تُرِيدُ أَنْ تَسْمَعَ تَتِمَّةَ قِصَّتِي؟»

فَقُلْتُ: «بَلَى: هَاتِ مَا عِنْدَكَ.»

فَقَالَ: «حِينَما أَنْبَأْتنا أُمِّي أَنَّها تَأْكُلُ أَوْلادها أَطْلَقْتُ أَرْجُلِي لِلرِّيحِ، وَهَرَبْتُ مِنْ وَجْهِها نازِلًا نَحْوَ النَّهْرِ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلى ماثِيهِ، فَوَجَدْتُ أَنَّي اسْتَطِيعُ أَنْ أَمْشِيَ عَلى المَءِ، كَما أَمْشِي عَلى اليَاسِةِ، فَسَرَرْتُ بِذَلِكَ جِداً.»
فَقُلْتُ لَهُ: «هذا أَمْرٌ لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُهُ.»

فَقَالَ: «إِنَّكَ لا تَعْلَمُ مِقْدارَ ما نَسْتَطِيعُهُ، إِذا اضْطَرَرْنَا إِليهِ. نَعَمْ، لَيْسَ كُلُّ العِناكِبِ يَسْتَطِيعُ ذلكَ، وَلَكِنَّ بَعْضها يَسْتَطِيعُهُ، وَأنا مِنْهُم. وَمِنَ أَنسَبائِنا نَوْعٌ يَغُوصُ فِي المَءِ، وَيَسْكُنُ فِي فُقاعَةٍ مِنَ الهِواءِ، وَنَوْعٌ يَثِبُ عَلى الأَرْضِ، مِثْلُ القَنْعَرِ. ولا غِرابَةٍ فِي مَشِينا عَلى المَءِ، فَإِنَّ بَيْنَنا وَبَيْنَ السَّراطِينِ نَسَباً وَإِنْ كانَ بَعِيداً.»
فَقُلْتُ لَهُ: «أَصَبْتَ، فَإِنَّكَ تُشَبِّهُ السَّرطانَ فِي شَكْلِكَ.»

فَقَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِنَّ السَّرطانَ لا يَكْتَفِي بِثَماني أَرْجُلٍ مِثْلنا، بَلْ لَهُ عَشْرُ أَرْجُلٍ. ولِماذا تَقْطَعُ عَلى الحَدِيثِ؟ دَعِني أَتَمِّمَ قِصَّتِي: لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّي أَمْشِي عَلى وَجْهِ المَءِ بادِرْتُ إِلى أَقْرَبِ قِصَبَةٍ، وَأَخَذْتُ أَنْسُجَ بَيْتاً لِنَفْسِي، لِكِى أَجْعَلَهُ مَصِيدَةً لِلدُّبابِ. وَقَبْلَ أَنْ أُتِمَّهُ مَشَيْتُ عَلى قِصَبَةٍ، فَوَجَدْتُ عَلَياها حَشَراتٍ صَغِيرَةً، حُضْراً، خالِيةً مِنَ الأَجْنِحَةِ، فَقبَضْتُ عَلى واحِدَةٍ مِنْها، وَالتَّهَمْتُها، فَاسْتَطَعَمْتُها. فَجَعَلْتُ اللِّتَمَ الواحِدَةَ بَعْدَ الأُخْرى، حَتَّى انْتَفَحَتْ بَطْنِي، وَشَعَرْتُ كَأَنَّهُ كادَ يَنسُقُ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «كَيْفَ كُنْتَ تَلْتَهَمُها؟ أَكُنْتَ تَبَلَعُها بَلْعاً؟»

فَقَالَ: «كَلِّلاً بَلْ كُنْتُ أَشَقُّ ظَهْرَها مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْها، وَأَمْتَصُّ دَمَها، فلا أَبْقِي فِي جِسمِها شَيْئاً غَيْرَ جِلْدِها. وَلَمَّا شَبِعْتُ عُدْتُ إِلى بِناءِ بَيْتِي، فَاتَمَمْتُه. وَجَلَسْتُ أَتَرَقَّبُ وَقُوعَ الدُّبابِ، فَوَقَعَ فِيهِ دُبابٌ كَثِيرٌ. فَأَكَلْتُ وَسَمِنْتُ جِداً، حَتَّى كُنْتُ أَضْطَرُّ إِلى أَنْ أَخلَعَ جِلْدِي مَراراً، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْعُنِي. وَكَثيراً ما كانَتْ تَنقُطُ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ مِنِّي، وَقَتَ حَلْعِهِ.»
فَقُلْتُ: «كَيْفَ ذلكَ؟ أَوْ لَمْ يَكُنْ قَطْعُها مُؤلِماً؟»

فَقَالَ: «بلى، كُنْتُ أَتَأَلَّمُ قَلِيلاً؛ لِأَنَّنا — نَحْنُ العِناكِبَ — لا نَتَأَلَّمُ مِثْلَكُم، ولا مِثْلَ الدِّيدانِ؛ فَإِذا انقَطَعَتْ رِجْلٌ مِنْ أَرْجُلِنا نَبَتَتْ لَنا رِجْلٌ أُخْرى بَدَلاً مِنْها ... وَقَدِ قُطِعَتْ اثْنَتانِ مِنْ أَرْجُلِي، فَنبَتَ لي غَيْرُهُما. ولا داعِي لِلإِطالَةِ فِي تاريخِ حِياتِي عِنْدَ ذلكَ النَّهْرِ؛ فَادْعُهُ، وَأَقْصُ عَلَياكَ قِصَّةَ غَيْرَتِ مَجْرى أُمُورِي: كُنْتُ — ذاتَ يَومٍ — جالِساً فِي بَيْتِي، أَتَرَدَّدُ عَلى بابِهِ، داخِلاً خارِجاً، لَعَلِّي أَلْفَتُ إِلى دُبابَةٍ كَبيْرَةٍ كانَتْ واقِفَةً عَلى قِصَبَةٍ أَمامِي.

وَبَيْنَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَأَتَأَمَّلُ جَنَاحَيْهَا: إِذَا بِالْجَنَاحَيْنِ سَقَطَا عَنْ بَدَنِهَا بَغْتَةً. وَإِذَا بَتَلَتْ الذُّبَابَةَ قَدْ صَارَتْ — بَعْدَ وَقُوعِ جَنَاحَيْهَا — نَمَلَةً كَبِيرَةً، كَأَقْبَحِ مَا يَكُونُ النَّمْلُ..

فَقُلْتُ لَهُ: «أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَلَكَاتِ النَّمْلِ، يَرِمِينَ أَجْحَنَهُنَّ بَعْدَ زَوَاجِهِنَّ؟»

فَقَالَ: «كَلَّا، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ ذَلِكَ. فَوَقَفْتُ مَدْهُوْشًا. وَقَبْلَ أَنْ أُفِيقَ مِنْ دَهْشَتِي، جَعَلَتْ النَّمَلَةُ تُنَاجِي نَفْسَهَا، وَتَقُولُ: «هَلَا، هَلَا. لَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ جَنَاحِي يَسْقُطَانِ الْيَوْمَ، فَلَا أَبْقَى هُنَا فَوْقَ الْمَاءِ. وَلَوْلَا هَذَا الْقَصَبُ الَّذِي يُوصِلُنِي إِلَى النَّبْرِ، لَقَضِيَ عَلَيَّ. مَا هَذَا الَّذِي أَمَامِي؟ هَذَا عَنكَبٌ، إِذْنُ أَخَذَهُ إِلَى قَرَبَتِي وَأَكَلَهُ عَلَى مَهَلٍ!»

وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا حَاقَ بِي حِينِيذٍ. فَرَمَيْتُ بِنَفْسِي مِنْ بَيْتِي إِلَى الْمَاءِ، وَأَخَذْتُ أَسْبَحُ جُهْدِي؛ وَلَمْ أَبْعُدْ إِلَّا خُطَى قَلِيلَةً، حَتَّى رَأَيْتُ حَرَكَةً عَنِيفَةً فِي الْمَاءِ، فَالْتَفَتُّ، وَإِذَا بِخُنْفَسَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ حَنَافِسِ الْمَاءِ، وَقَدْ رَفَعَتْ زُبَانِيئِهَا، وَجَدْتُ فِي أَثَرِي سِبَاحَةً. وَنَظَرْتُ أَمَامِي أُرِيدُ الْهَرَبَ، وَإِذَا بِي أَرَى دُوْدَةً كَبِيرَةً مِنْ الدُّودِ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْهُ زُنْبُورُ التَّنِّينِ، وَعَيْنَاهَا كَمِصْبَاحَيْنِ مُتَقَدِّمَيْنِ، سَدَّتْ فِي وَجْهِ مَسَالِكِ الْمَاءِ وَالْيَابِسَةِ. وَلَمْ يَبْقَ أَمَامِي إِلَّا الْهَوَاءُ، فَوَدَّعْتُ إِلَى وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِ زَنْبَقِ الْمَاءِ. وَلَجَأْتُ إِلَى سَلِيْقَةِ أُسْلَافِي، وَأَفْرَزْتُ مِنْ مَغَازِلِي السِّتَةَ — الَّتِي فِي ذَنْبِي — سِتَةً خُبُوطِ حَرِيرِيَّةٍ دَقِيقَةٍ، فَاتَّحَدْتُ مَعًا، وَطَارْتُ فِي الْهَوَاءِ: خَيْطًا وَاحِدًا، بَرَاقًا كَالْبِلُّورِ؛ فَتَشَبَّهْتُ بِهِ، وَطَرْتُ فِي مَجَارِي الرِّيحِ الَّتِي كَانَتْ تُمَدِّدُهَا حَرَارَةُ الشَّمْسِ، وَتُرْسَلُ بِهَا صُعْدًا. ثُمَّ عَبْتُ بِي النَّسِيمِ، فَحَمَلَنِي إِلَى حَرَجَةِ (أَشْجَارِ مُجْتَمِعَةٍ) مِنَ الصَّنَوْبِرِ، وَسَارَ بِي فَوْقَهَا، وَفَوْقَ السُّهُولِ الْمُجَاوِرَةِ لَهَا. وَقَدْ رَأَيْتُ فِي طَرِيقِي كَثِيرَاتٍ مِنْ أَخَوَاتِي، رَاكِبَاتٍ مَنَاطِيدهَا، وَهِيَ سَائِرَاتُ بَيْنِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ. وَلَكِنِّي رَأَيْتُ طُيُورًا صَغِيرَةً مِنَ النَّوْعِ الْمَعْرُوفِ بِالْخُطَافِ، تَنْقُضُ عَلَيْهَا وَتَخَطُّفُهَا. فَقُلْتُ: «وَيْلَاهُ! حَتَّى فِي الْهَوَاءِ لَا نَسْلُمُ مِنَ الْأَعْدَاءِ؟ وَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ لَمْ يَجِدْهَا، وَلَوْ اتَّخَذَ لَهُ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ.» فَأَطَلْتُ خَيْطِي، وَجَعَلْتُ أَهْبِطُ رُويْدًا رُويْدًا إِلَى أَنْ وَقَعْتُ عَلَى بَعْضِ الْهَشِيمِ. وَلَمْ أَكُنْ أَصِلُ إِلَيْهِ، حَتَّى رَأَيْتُ زَنْبَارًا — كَالتَّنِّينِ — وَاقِفًا فِي انْتِظَارِي. وَنَحْنُ الْعِنَاكِبُ لَا نَخَافُ مِنَ الزَّنَابِيرِ، إِذَا كُنَّا فِي بِيوتِنَا، بَلْ نَحْتَالُ عَلَيْهَا، وَنَنْسُجُ حَوْلَهَا خُيُوطَنَا، حَتَّى نَمْنَعَهَا مِنَ الْحَرَكَةِ. ثُمَّ نَمُصُّ دَمَهَا — وَهِيَ كَبِيرَةٌ، كَثِيرَةُ الْغِذَاءِ — فَنَقْتَاتُ بِهَا

العَنْكَبُ الحَزِين

أَيَّامًا. وَأَمَّا إِذَا رَأَتْنا خَارِجَ بُيُوتِنَا فَإِنَّهَا تَنْتَقِمُ مِنَّا. فَيَهْجُمُ الرِّبَابُ عَلَى العَنْكَبَةِ، وَيَقْبِضُ عَلَيْهَا بِفَكِّيهِ، وَيَحْمِلُهَا إِلَى بَيْتِهِ وَيَأْكُلُهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً.

وَلَمْ تَخْنِي الحَيْلَةَ، فَفَقَطَعْتُ حَيْطِي، وَارْتَمَيْتُ فِي الهَشِيمِ كَقِطْعَةٍ مِنَ الحَجَرِ. فَوَصَلْتُ إِلَى أَسْفَلِهِ، وَقَدْ شَلَّ الخَوْفُ أَعْصَابِي.

وَأَبْرَقَتِ السَّمَاءُ وَأَرَعَدَتْ — فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ — وَسَقَطَ بَرْدٌ كَثِيرٌ. وَقُمْتُ — فِي الصَّبَاحِ: وَإِذَا الرِّيحُ تَهَبُّ بَارِدَةً، وَالسَّمَاءُ مُغَطَّاءٌ بِالسُّحُبِ. فَصَغُرْتُ نَفْسِي فِي عَيْنِي، وَشَعَرْتُ بِوَحْدَةٍ وَوَحْشَةٍ. فَصَعِدْتُ إِلَى رَأْسِ الشَّجَرَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا، وَأُفْرَزْتُ الخُيُوطَ مِنْ مَغَازِلِي، وَصَعِدْتُ بِهَا إِلَى الجَوِّ، فَسَاقَتْنِي الرِّيحُ، وَرَمَتْنِي عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ، فِي المَكَانِ الَّذِي قَضَيْتُ فِيهِ زَهْرَةَ صَبَايَ. وَاعْتَدَلَ الهَوَاءُ — حِينئِذٍ — وَكُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ أَشَدِّي، فَتَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى رُوجَةٍ تَكُونُ مَعِي.

وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «مَا لَكَ وَلِلرُّوجَةِ؟ وَأَنْتِ تَعْلَمِينَ عَاقِبَةَ أَمْرِكَ مَعَهَا؟»

فَقَالَتْ لِي: «مَا العَمَلُ، وَالمَقْدُورُ قَهَّارٌ؟!»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «العَنْكَبُ»، قَائِلًا: «وَقَضَيْنَا شَهْرَ العَسَلِ ... وَالآنَ حَمَّ القَضَاءُ!»

وَكَانَ يَقُولُ ذَلِكَ وَهُوَ يَنْظُرُ — يَمَنَّهُ وَيَسْرَهُ — كَالْمُسْتَجِيرِ الخَائِفِ مِنْ خَطَرِ يُوْشِكِ أَنْ يَدْهَمَهُ!

(١٦) مَصْرَعُ العَنْكَبِ الحَزِينِ

وَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ — وَأَعْضَاؤُهُ تَرْتَجِفُ خَوْفًا، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَدْهُوشًا — إِذْ خَرَجَتْ عَنْكَبَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الغَارِ، وَوَثَبَتْ عَلَيْهِ فَحَاوَلَتْ دَفْعَهَا عَنْهُ، وَلَكِنَّهَا أَمْسَكَتْ بِهِ، وَخَطَفَتْ أَنْفَاسَهُ. وَفِي أَقْلٍ مِنْ خَمْسِ دَقَائِقَ تَرَكَتُهُ جِلْدًا خَاوِيًا! ...»

الخَاتِمَةُ

وَلَمَّا انْتَهَى «صَفَاءُ» مِنْ قِرَاءَةِ هَذِهِ المَأسَاةِ، حَزَنَ «صَفَاءُ» وَأَسْرَتَهُ لِمَصْرَعِ العَنْكَبِ التَّاعِسِ، وَتَأَلَّمُوا لِخَاتِمَتِهِ المَفْرَعَةِ.

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ مُتَعاقِبَةً، وَلَكِنَّ الأُسْرَةَ لَمْ تَنْسَ هذِهِ القِصَّةَ الرَّائِعَةَ، الَّتِي مَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ، وَسَحَرَتْ ألبَابَهُمْ، وَكَشَفَتْ لَهُمْ عَن أَفاقٍ كَانَتْ مَسْتُورَةً عَنْهُمْ مِنَ المَعَارِفِ وَالْعُلُومِ.

محفوظات

قال «أبو نواس» يَصِفُ العَنْكَبَ:

وَقانِصٍ مُحْتَقِرٍ ذَمِيمٍ كُدرِي اللَّونِ، أَغْبَرِ، قَتِيمِ
مُشْتَبِكِ الأَعْجَازِ بِالأَحْيَازِ وَمَخْرَجِ اللَّحْظَةِ بِالأَخْيَاشِ
أَضْيَقِ أَرْضًا مِنْ مَقامِ المِيمِ أَوْ نُقْطَةِ تَحْتِ جَنَاحِ الجِيمِ
لَيْسَ بِقَعْدِيدٍ، وَلَا نَوُومٍ وَلَا — عَنِ الحِيلَةِ — بِالسَّوُومِ
لا يَخْلِطُ الهِمَّةَ بِالتَّنْوِيمِ

قانِصٌ: صائِدٌ.

كُدرِي اللَّونِ: مُغْبَرٌ عَيرٌ صَافٍ.

قَتِيمٌ: مائِلٌ إِلى السَّوادِ.

الأَعْجَازُ: مُؤَخَّراتُ الأَجْسامِ.

الأَحْيَازُ: الصِّدْرُ.

مَخْرَجُ اللَّحْظَةِ: العَيْنُ.

الأَخْيَاشِ: أَقْصى الأَنْفِ.

مَقامِ المِيمِ: الدَّائِرَةُ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْها رَأْسُ حَرْفِ المِيمِ.

القَعْدِيدُ: العَاجِزُ الكَثِيرُ القُعودِ.

النَّوُومُ: النَّائِمُ.

السَّوُومُ: السَّرِيعُ المَلَلِ.

الْعَنْكَبُ الْحَزِينُ

يَقُولُ: هَذَا الْحَيَوَانُ الَّذِي يَعِيشُ مِمَّا يَصْطَادُهُ، تَحْتَقِرُهُ الْعَيْنُ وَيَذُمُّهُ اللِّسَانُ، وَفِي لَوْنِهِ
غُبْرَةٌ تَجْعَلُهُ أَقْرَبَ إِلَى السَّوَادِ.

وَإِنَّهُ مُتَدَاخِلُ الْجَسَدِ، حَتَّى إِنَّ صَدْرَهُ لَيَشْتَبِكُ بِمَوْخَرِ جِسْمِهِ، وَعَيْنُهُ تَشْتَبِكُ بِأَنْفِهِ.
وَإِنَّهُ صَغِيرٌ ضَيْئِلٌ، حَتَّى لَتَرَى رَأْسَ الْمِيمِ أَوْسَعَ مِنْهُ.

وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالْخَامِلِ الْقَاعِدِ، بَلْ يَعْمَلُ وَيَسْعَى جَاهِدًا، لَا يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَلَلُ مِنْ طَلَبِ
الْحِيلَةِ، وَلَا يَشْغَلُهُ النَّوْمُ عَنِ بَدْلِ الْهَمَّةِ.

يَصِفُ الْعَنْكَبُ بِأَنَّهُ هُمَامٌ، دَائِبٌ عَلَى الْعَمَلِ، غَيْرٌ مُتَرَاخٍ فِي الْقِيَامِ بِالْوَجِبِ عَلَيْهِ، وَلَا
مُخْلِدًا إِلَى الْبَطَالَةِ.